

كتاب "أوصاف القرآن"

- الإمام عبد الحميد الفراهي¹

نسخه ورثته: د. محمد عمير أبو سفيان الإصلاحي²

[كتاب "أوصاف القرآن" من الكتب التي رسم الفراهي خطها وكتب شيئاً من مضمونها توطئة لتفسيره العظيم "نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان" غير أنه لم يتَّح له إتمام هذا المشروع؛ إذ لم يكتب من هذا الكتاب إلا نحو سبعة أوراق فحسب.

كما لم يكمل تفسيره، حيث اقتصر عمله على تفسير 60 آية من سورة البقرة وبعض آيات من سورة آل عمران وسورة الحج وبعض السور القصار المهمة من الأجزاء الأخيرة من القرآن الكريم.

وكذلك لم يستطع أن يكمل الكتب التي ألَّفها كقائمة لتفسيره العظيم ولكن بعضها- مع عدم اكتمالها- تشتمل على أكثر من مئة صفحة وتوضح الفكرة.

أما كتابه "أوصاف القرآن" فهو- بخلاف تلك المؤلفات- لا يتجاوز سبعة أوراق، وقد عثرنا على مسودة واحدة من الكتاب بينما أشار الدكتور أجمل أيوب الإصلاحي في تحقيقه لكتاب "مفردات القرآن" للفراهي إلى وجود مسودتين يبلغ مجموع أوراقهما 25 ورقة³ وذكر تفصيل ذلك في مقاله "ما لم يطبع من تراث الفراهي"⁴.

"وتشكون إحدى المسودتين من عشر أوراق، تضم غلافًا كتب عليه عنوان الكتاب، وخطبة، وتمهيداً، وملاحظتين في الحاشية، إضافة إلى خمس صفحات مكتوبة. وهناك مسودة أخرى

¹ الشخصية التي خصصنا بسيرتها وأعمالها هذا العدد.

² مدرس ضيف، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة المليية الإسلامية، نيودلهي، الهند

³ الفراهي: عبد الحميد، مفردات القرآن، الطبعة الأولى، تحقيق: د. أجمل أيوب الإصلاحي، بيروت:

دار الغرب الإسلامي، 2002م، ص: 36

⁴ علامه حميد الدين فراهي: حيات وافكار، مقالات ندوة حول الفراهي، أعظم كره: دائره حميديه،

1992م، ص: 70

تذكرة

نذكر فيه (1) كونه ظاهراً من وجه باطناً من وجه آخر لكونه جامعاً للكتاب والحكمة وابتداء التعليم وانتهائه وموضعاً للتدبير.

(2) وكونه محكماً ومتشابهاً من وجهين.

(3) وكونه هادياً بالحقيقة نسبة الضلالة إليه مجازاً ولذلك لم يُسمَّ مضلاً بل أظهر هذه الصفة بطريق يعلن بأن الكفرة والفسقة هم أنفسهم منبع الضلالة.

(4) وكونه قديماً بمعنى حديثاً بمعنى آخر.

(5) وكونه غير مخلوق من جهة معانيه التي هي في علم الله ومن جهة أنّ كلام الله وإن كان حادثاً لا يكون مخلوقاً لجهتين:

لاحتياج جميع المخلوق فكلامه قائم بالله تعالى من غير واسطة كلام آخر. ومن جهة أنّ إطلاق الخلق على الكلام يوهم الكذب فيشنع إطلاقه على كلام الله.

ومن جهة أنّ الكلام ليس هو الصوت بل هو أمر في النفس قبل الصوت من قسم المعاني والعلوم التفصيلي فإنّ معاني الكلام ليست إلا تفصيل علم إجمالي ولما كان علم الله قديماً جعلوا كلامه قديماً من هذه الجهة. واعلم أنّ الجدل في ذلك من البدع والتعمق في الدين المنهي عنه.

كتاب "أوصاف القرآن"

1. إنّ في القرآن هدىً على المعاش فيعلم الإنسان منه كيف يعيش وكيف يختار من المشاغل ولا بد فإنه هدى الناس فلولم يهدهم في ذلك لم يكن هدىً في معظم أمرهم. وبالجملّة فالقرآن يرشد الناس في معاشهم كما يرشدهم في معظمات دينهم من فروع الفقه والعقائد والسياسة وأمر المنزل، وذلك بأنّ الرب تعالى جعل للخلق

فيما وجد بعضه أو تسديداً لما قد كاد يبعد فيه عن الحق أو حلاً لما أشكل عليه أو إثارة مسألة لم تنسخ له من قبل. ولذلك ترى أولى النظر والعلم واللب يتسارعون إليه لمن طلب فوجداً، وقد بين القرآن هذه الأوصاف لنفسه فقال: "بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿٤٩﴾" (العنكبوت: 49).

وكذلك ما دلّ بأسمائه من الذكر والبصائر والتبيان والهدى والنور وأشباه ذلك.

(1) قال تعالى: "وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾" (النحل: 78) أي كما جعل الله الإنسان ذا سمع وبصر فكذلك جعله ذا فكر وعقل وبذلك أنعم عليهم ليشكروه. فإنه تعالى كما جعل مسرة الإنسان في استعمال سمعه وبصره فكذلك جعل مسرته في العلم والمعرفة بحقائق الأشياء وجعل نعمة المعرفة ما فضله به على أكثر الخلق، ثم أمد السمع والبصر بالهواء والضياء وهكذا أمد الفكر بآياته في الآفاق والأنفس، ولولا غفلة الناس عن الآخرة لما احتاج إلى تذكير في أمورها فإنه لم يزل يستعمل فكره في منافع هذه الحياة ويزداد يوماً فيوماً ولكنه كثير الغلط في أمور الديانة فلذلك أرسل الله الرسل فدعوهم إلى ربهم بالموعظة وبشيء من الاستدلال حتى جاء القرآن الحكيم فحينئذ ترى الدعوة على أتم رعاية لتربية العقول فإنه حثهم على استعمال النظر في آيات الفطرة، فما جاء القرآن إلا بأمر بين لم يبصروه لا خلفائه ولكن لغفلتهم فنبههم عليه وحثهم على النظر والفكر لكي تكمل تربيتهم ولكي لا يكونوا من المقلدين في أمر الدين ولكي يحصل لهم كمال الإيمان واليقين. كما أشار إليه في قوله تعالى: "وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٥﴾" (الأنعام: 75)

(2) ومع أنّ آيات الفطرة الخارجة منشورة بين أيدي الناس ترى عقولهم قاصرة في استبصارها، ومن هنا يتضح شدة الحاجة إلى الاستهداء بنور ما أنزل من الهدى والفرقان، ولذلك ترى المتفلسفين والمشتغلين بما ابتدعوا من العقليات في اختلاف شديد مع طول الزمان ومع إفراغ جهودهم في سعيهم، قترهم يناقض بعضهم بعضاً ويهدم

اللاحق ما بناه السابق حتى لا ترتجى اتفاقهم أو تقاربهم لبعده من هذه الحقائق الممتدة فمن سلك هذا السبيل أو اشتغل بمقالاتهم لا بد أن يطلع على المسائل التي توجهوا إليها والأدلة التي تمسكوا بها، ولا شك أن هذه المسائل على أقصى جانب من الأهمية وعدم القول الفصل فيها من أشد الجهالات واليأس فيها من أكبر المصائب بل لا قيمة للحياة ولا لذة في العيش حتى يرتفع الحجاب ويطمئن القلب. فمنهم من أخذ مذهباً لنفسه، وسكن إليه مع مخالجة شك لا يكاد يخلص منه، ومنهم من لم يتخذ مذهباً بل يأس من وجدان الحق وهم أكثر. فهذه حالة أهل العقول والأنكار من الذين لم يهتدوا بما أنزل الله من الآيات لكبر في صدورهم واعتزاز والكبر داء عياء. والقرآن قد بين ذلك حيث قابل بين المؤمنين والذين لم يؤمنوا في آية النور حتى قال: "وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُّورٍ ﴿٤٠﴾". [النور: 40] وليس المقصود ههنا تفصيل مذاهبهم، إنما ذكرنا ذلك لتعلم أن القرآن مع كونه أقرب إلى العقول ليست هي في غنى عنه كما أن الضياء أقرب إلى العيون ولكنها ليست في غنى عن الضياء. ومما يدل على كلا الأمرين أنك ترى القرآن موافقاً لأصول الحكماء على البدلية فوافقة القرآن بعضهم في أمر وبعضهم في أمر آخر تدل على أن آيات الفطرة لم تكن على بعد ولذلك هدوا إليها ولكنهم لم يهتدوا في آخر النتيجة لزلتهم في تركيب هذه الأمور البينة بل لزيغهم في استدلالهم بالغوا في جانب وأنكروا بجانب. وكما الفهم والسداد إنما يظهر في التركيب كذلك عظم المصالح والمخاسن في كل صنعة ولذلك ترى القرآن لا يدعي أنه جاء بما لم يهتد إليه أحد بل يذكرهم ما أودع قلوبهم ثم يسددهم فإنهم ضلوا بما لم يهتدوا في خطواتهم.

القرآن أحسن تعليماً للحكمة والفكر

(١) كما أن الفطرة مشتملة على الحكمة وآياتها ومهيجة إلى الفكر والنظر فكذلك القرآن، ومن حسن تعليمه أنه مهيج إلى النظر والفكر مع اشتماله على أصول الحكمة والاستدلال، لكن ذلك ليس على طريق اشتمال الكتب المصنفة في ذلك، مثلما ترى

في الخطب البليغة المشتملة على ضرب الأمثال وفنون البيان من التشبيه والاستعارة والاستدلال، أو كما ترى قصائد فحول الشعراء مشتملة على فنون محاسن الشعر ثم تقابلها بالكتب المدونة في علم البلاغة والشعر، فترى الأول ما فيه نفس البلاغة والثاني ما هو شرح ذلك والشرح ربما يقصر عن تمام البيان لما في نفس تلك البلاغة الموجودة، كما ترى العلوم في الطبيعيات والنفس تقصر دون ما في نفس قوانين الطبيعة.

من كتاب "أوصاف القرآن"

"كِتَبُ أَنْزَلْتَهُ إِلَيْكَ مُبْرَكٌ لِيَذَّبَ رَوْءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾" [ص: 29]

(1) التدبر هو النظر في أدبار الشيء ووراء الظواهر وذلك من حيث الوجود ما يتقدمه وما يتأخر عنه، فن تدبر الشيء اطلع على أسبابه وعلله وشرائط وجوده وكذلك اطلع على ما يتبعه من الآثار. وأما التذکر فهو الوقوف على ما غفل عنه ونسي من المعارف وأصول الإرادة التي أودع فطرة النفس، فالتدبر يكون في آيات القرآن وما دلّ عليه من المعاني وكذلك فيما اشتمل من آيات الكون التي نبه عليها تصريحاً أو تلويحاً. فن تدبر في هاتين الآيتين انتبه فيه قوى الفطرة النظرية والعملية فوجد الإيقان والبرد والشكر والخشية والرغبة إلى الأعمال الصالحة المزكية، والنفرة من السيئات وأمراض النفس ووجد حاسة جديدة وحياة عالية زكية وتنافساً في الخيرات ومعالي الأمور. وهذه النتائج التي تحصل للنفس هي الخير الكثير والسعادة الكبرى، والقرآن الحكيم أنزله القرآن على صفة يفيد هذه الفوائد ولذلك سمّاه مباركاً. ولكن لا ينتفع به إلا من له لبّ وفهم وصلاحية، لذلك كالمطر الذي هو بركة ورحمة ولكن لا تخرج بركاته إلا الأرض الطيبة. وقد صرح القرآن بذلك في غير آية مثلاً: "هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢٩﴾" [البقرة: 2]، [و] "هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٠﴾" [لقمان: 3] ...





